فقه الموازنات

في سياسة المفاوضات النبوية

إن المتتبع لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم العطرة يلحظ فقه الموازنات في كل مرحلة من مراحلها، ويبرز فقه الموازنات جلياً في المفاوضات التي أجراها النبي صلى الله عليه وسلم مع مختلف القبائل العربية ، وكذلك قيما بناه عليه الصلاة والسلام من تحالفات مع بعض القبائل أو الزعامات ، وفي هذه الحلقة سنتوقف مع بعض هذه المواقف إن شاء الله تعالى .

أولاً: ثلاث جولات من المفاوضات والمساومات مع قريش في مكة

اجتمع المشركون يومًا، فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر، والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه، ولينظر ماذا يردُّ عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحدًا غير عتبة بن ربيعة، فقالوا: أنت يا أبا الوليد، فأتاه عتبة فقال: يا محمد أنت خيرٌ أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم،قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خيرٌ منهم، فتكلم حتى نسمع قولك، إنا والله ما رأينا سَخلَةً (ولد الضأن أو المعز ساعة يولد) قط أشأم على قومك منك، فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب حتى لقد طار فيهم: أن في قريشٍ ساحرًا، وأن في قريش كاهناً، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى، أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى، أيها الرجل: إن كان إنما بك الحاجة، جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أغنى قريشٍ رجلاً، وإن كان إنما بك – الباه – فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشرًا.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فرغت؟» قال: نعم، فقال رسول الله: حم (1) تَنزِيلٌ مِنْ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (4) (فصلت: ١ – ٣) إلى أن بلغ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (13) (فصلت: ١٣)، فقال عتبة: حسبك، ما عندك غير هذا؟ قال: «لا»، فرجع إلى قريش فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئًا أرى أنكم تكلمونه إلا كلمته، قالوا: فهل أجابك؟ فقال: نعم ·

-فلما جلس إلى قومه قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوا، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم .

وذكرت بعض كتب السيرة بأن قيادات مكة دخلوا في مفاوضاتٍ بعد ذلك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرضوا عليه إغراءاتٍ تلين أمامها القلوب البشرية ممن أراد الدنيا وطمع في مغانمها، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ موقفاً حاسمًا في وجه الباطل دون مراوغة أو مداهنة؛ ولذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل علي كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوا علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم»

ولما رأى المشركون صلابة المسلمين واستعلاءهم بدينهم، ورفعة نفوسهم فوق كل باطل، ولما بدأت خطوط اليأس في نفوسهم من أن المسلمين يستحيل رجوعهم عن دينهم سلكوا مهزلة أخرى من مهازلهم الدالة على طيش أحلامهم، ورعونتهم الحمقاء، فأرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعض سادتهم وكبرائهم فقالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيرًا مما نعبد، كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيرًا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه» فأنزل الله فيهم: سورة

من هذا العرض الطويل للمفاوضات بين الرسول وقريشٍ، نجد النبي عليه الصلاة والسلام يرسم لنا الخطوط الرئيسية لأي حوارٍ ومفاوضاتٍ مع الآخر، ويبين لنا سياسة الموازنات في الحوار، ويبين لنا ما يدخل تحت الموازنات وما لا يقبل أي مساومةٍ.

ففي حواره مع عتبة بن ربيعة لم يدخل الرسول صلى الله عليه وسلم في معركة جانبية حول أفضليته على أبيه وجده أو أفضليتهما عليه، ولو فعل ذلك لقضي الأمر دون أن يسمع عتبة شيئًا، وبالتالي تغاضى عن كلام عتبة لأن مآله أن يمهد الطريق أمام عتبة ليسمع كلام الحق، كما أنه لم يخض صلى الله عليه وسلم معركةً جانبيةً حول العروض المغرية، وغضبه الشخصي لهذا الاتهام، إنما ترك ذلك كله لهدفٍ أبعد ومصلحةٍ أعظم، وترك عتبة يعرض كل ما عنده، وبلغ من أدبه صلى الله عليه وسلم أن قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟» فقال: نعم .

ثم كان جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم حاسمًا،باختياره لهذه الآيات لدليل على حكمته، وقد تناولت الآيات الكريمة قضايا رئيسية منها: إن هذا القرآن تنزيل من الله، بيان موقف الكافرين وإعراضهم، بيان مهمة الرسول، وأنه بشر، بيان أن الخالق واحد هو الله، وأنه خالق السماوات والأرض، بيان تكذيب الأمم السابقة وما أصابها، وإنذار قريش صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود .

ولقد تأثر عتبة من موقف النبي صلى الله عليه وسلم: وكان هذا التأثير واضحًا لدرجة أن أصحابه أقسموا على ذلك التأثير قبل أن يخبرهم، فبعد أن كان العدو ينوي القضاء على الدعوة، إذا به يدعو لعكس ذلك، فيطلب من قريش أن تخلي بين محمد صلى الله عليه وسلم وما يريد.

وهكذا نرى كيف كسب الرسول عليه الصلاة والسلام الجولة الأولى من المفاوضات وذلك لأنه لم ينتصر لنفسه، ولم يدخل في معارك جانبية تصرفه عن الغاية التي يريد الوصول إليها، ولم يستسلم للعروض المغرية التي قدمها الزعيم القرشي، فما هي إلا لذاتٌ آنيةٌ تتساقط أمام مقاصد الدعوة وغاياتها السامية، وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم مقاصد دعوته بياناً شافياً حقق بذلك مقصد التبليغ وما ترجى من ورائه من مصالح، وكان مما حققه عليه الصلاة والسلام من مصلحةٍ في هذه الجولة من المفاوضات تحييد زعيمٍ من كبار الزعماء وكسر شوكته وهو عتبة بن ربيعة.

يقول الدكتور الغضبان في ذلك: "إن مهمة القيادة الإسلامية وهي تخوض الحرب ضد أعداء الإسلام أن تخذل عنها ما استطاعت، أن تمزق العنف الكافر، أن تفتت وحدة صف العدو، فتحييد من تستطيع تحييده، وتضم إلى صفها من تستطيع ضمه، وأن تثير الشكوك والخلافات بين الكافرين، ولا يعتبر هذا وهناً في الدين، ولا مهادنةً في دين الله، ولا تساهلاً على حساب العقيدة، بل هو عمقٌ سياسي، ونضجٌ دعويٌ"

وفي جولات المفاوضات الأخرى رأينا العروض المغرية التي قدمها المشركون للرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد رفضت جميعها وأصر الرسول صلى الله عليه وسلم على موقفه في بيان الحق والصدح به، وهنا قد يقول قائلٌ أليس من فقه الموازنات أن يقبل الرسول ما قدم له من عروضٍ، كأن يكون زعيماً لقريش ويجمع له المال العظيم؟ أليس هذا أقصر طريق ليصل الرسول إلى هدفه من إخضاع قريش لسلطان الإسلام؟

و الجواب عن ذلك: أن بناء الإسلام يقوم على بناء الإنسان العَقَدِي الذي يحمل العقيدة فكراً وروحاً ومنهج حياة، والمبادئ إنما تبنى في الرجال بناءً ولا تفرض عليهم فرضاً، فكل ما جاء بقوة السلطان كان سريع الذهاب والزوال بزوال هذا السلطان، ثم إن هذا السلطان بناه الكفرة، وهم رعاته وحماته وسرعان ما ينقلبوا عليه إذا عارض مصالحهم وعقائدهم، ثم إن الاستسلام ولو تقيةً لما يعرضه الكفرة يطعن في مصداقية الدعوة ورسولها، لأنه يتبدى للجميع أن هذا الداعية ما هو إلا صاحب مطمع دنيوي

مما يحقر دعوته ومبادئه أمام الناس، لذلك رأينا موقف الرسول أمام هذه العروض حاسماً من دون مراوغة أو مداهنةٍ، أو دخولٍ في دهاءٍ سياسي لأن قضية العقيدة تقوم على الوضوح والصراحة والبيان بعيدة عن المداهنة والتنازل؛ ولذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل علي كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوا علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» .

وفي الجولة الثالثة من المفاوضات رأينا سخف المشركين وهشاشة عقائدهم، فهم مستعدون أن يتنازلوا عنها إذا حققت لهم بعض المصالح والمكاسب القريبة، لذلك عرضوا على النبي صلى الله عليه وسلم حلاً وسطاً فيما يزعمون يتمثل في أن يعبدوا الله يوماً ويعبد آلهتهم يوماً آخر، فجاء الرد حاسماً: إن العقيدة خطٌ أحمر وليست محلاً للمفاوضات والمساومات، ولا تخضع لموازنات وترجيحات، فلا مصلحة تعلو مصلحة الإيمان بالله وإفراده بالعبودية، ولا مفسدة تعلو مفسدة الشرك بالله.

لذلك نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم سورة الكافرين لتبيين هذه الحقيقة ولتبيين المفاصلة الحاسمة بين عبادةٍ وعبادةٍ، ومنهجٍ ومنهجٍ، وتصورٍ وتصورٍ، وطريقٍ وطريقٍ، نعم نزلت نفيًا بعد نفي، وجزمًا بعد جزم، وتوكيدًا بعد توكيدٍ، بأنه لا لقاء بين الحق والباطل، ولا اجتماع بين النور والظلام، فالاختلاف جوهري كامل يستحيل معه اللقاء على شيء في منتصف الطريق، والأمر لا يحتاج إلى مداهنةٍ أو مراوغةٍ

نعم فالأمر هنا ليس مصلحةً ذاتيةً، ولا رغبةً عابرةً، ولا سمًّا في عسل، وليس الدين لله والوطن للجميع كما تزعم الجاهلية المعاصرة، ويدعي المنافقون والمستغربون الذين يتبعون الضالين والمغضوب عليهم، ولا كما يعتقد الملحدون أعداء الله سبحانه في كل مكان، كان الرد حاسمًا على زعماء قريش المشركين، ولا مساومة، ولا مشابهة، ولا حلول وسط، ولا ترضيات شخصية، فإن الجاهلية جاهلية والإسلام إسلام، في كل زمان ومكان، والفارق بينهم بعيد كالفرق بين التبر والتراب، والسبيل الوحيد هو الخروج عن الجاهلية بجملتها إلى الإسلام بجملته عبادةً وحكماً، وإلا فهي البراءة التامة والمفاصلة الكاملة والحسم الصريح بين الحق والباطل في كل زمان (**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**) .

ثانياً: مفاوضات طلب الحماية والنصرة لإنشاء الدولة

يذكر أصحاب السيرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم أتى بني عامر بن صعصعة، فدعا إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم يقال له بَيْحَرة بن فِراس: والله لو أني أخذت هذا الفتى لأكلت به العرب، ثم قال له: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: "**الأمر لله يضعه حيث يشاء**"، قال: فقال له: أَفَنُهدفُ نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك فأبوا عليه.

ثم انتقل إلى مجلسٍ آخر عليه السكينة والوقار فتقدم أبو بكر فسلم فقال: من القوم؟ قالوا: شيبان بن ثعلبة فالتفت أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: بأبي وأمي، هؤلاء غُرَر الناس، وفيهم مفروق قد غلبهم لسانًا وجمالاً، وكان أدنى القوم مجلسًا من أبي بكر، فقال أبو بكر: كيف العدد فيكم؟ فقال مفروق: إنا لا نزيد على الألف ولن تغلب ألف من قلةٍ، فقال أبو بكر: وكيف المنعة فيكم؟

فقال مفروق: إنا لأشد ما نكون غضبًا حين نلقى، وأشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله يديلنا مرة، ويديل علينا أخرى، لعلك أخو قريش؟ فقال أبو بكر: إن كان بلغكم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فها هو ذا، فقال مفروق: إلام تدعونا يا أخا قريش؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

وأني عبد الله ورسوله، وإلى أن تؤووني وتنصروني، فإن قريشًا قد تظاهرت على الله، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد»، فقال مفروق: وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ فوالله ما سمعت كلامًا أحسن من هذا، فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151)

فقال مفروق: دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك، وظاهروا عليك، ثم رد الأمر إلى هانئ ابن قبيصة فقال: وهذا هانئ شيخنا، وصاحب ديننا، فقال هانئ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وإني أرى تركنا ديننا، واتباعنا دينك لمجلس جلست إلينا، لا أول له ولا آخر، لذل في الرأي، وقلة نظر في العاقبة أن الزلة مع العجلة، وإنا نكره أن نعقد على من وراءنا عقدًا، ولكن نرجع وترجع، وننظر، ثم كأنه أحب أن يشركه المثنى بن حارثة، فقال: وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا فقال المثنى – وأسلم بعد ذلك –: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب فيه جواب هانئ بن قبيصة، في تركنا ديننا ومتابعتنا دينك وإنا إنما نزلنا بين صَرَيَين (تثنية صري وهو الماء المجتمع) أحدهما اليمامة(تقع حالياً جنوب شرق مدينة الرياض) ، والآخر السَّمامة(منطقة في جنوب العراق).

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما هذان الصريان؟»، قال: أنهار كسرى، ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى، فذنب صاحبه غير مغفورٍ، وعذره غير مقبولٍ.

وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى، أن لا نحدث حدثًا ولا نؤوي محدثًا، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليه يا أخا قريش مما تكره الملوك، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب، فعلنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فقالوا: اللهم فلك ذاك . ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله تعالى أرضهم وديارهم ويفرشكم نساءهم، أتسبحون الله وتقدسونه؟»

بعد هذا العرض المسهب للمفاوضات مع قبيلتي بني عامر بن صعصعة وبني شيبان لنا وقفات لاستنباط فقه الموازنات في اختيار المحاورين وفي شروط التحالف وما يقبل منها وما لا يقبل.

فأما سبب اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم لقبيلة بني عامر بن صعصعة فلأنها قبيلةٌ مقاتلةٌ كبيرةٌ العدد وعزيزة الجانب، بل هي من القبائل الخمس التي لم يمسها سباءٌ، ولم تتبع لملك ولم تؤد إتاوة مثلها مثل قريشٍ وخزاعة، كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعلم أن هنالك تضادًا قديمًا بين بني عامر وثقيف، فإذا كانت ثقيف امتنعت عليه من الداخل فلماذا لا يحاول أيضا تطويقها من الخارج، والاستفادة من بني عامر بن صعصعة، فإذا استطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يبرم حلفًا مع بني عامر فإن موقف ثقيف سيكون على حافة الخطر .

وأما سبب اختيار قبيلة بني شيبان فلأنها قبيلةٌ محاربةٌ مرهوبة الجانب، ويمتاز قادتها بالحكمة والشجاعة، ثم إنها قبيلةٌ منظمةٌ لكل فردٍ فيها دوره، فهناك القيادة السياسية المتمثلة بمفروق، وهناك القيادة الدينية المتمثلة بهانئ بن قبيصة، والقيادة العسكرية المتمثلة بالمثنى بن حارثة، فقبيلةٌ كهذه جديرةٌ بأن تختار لتحمل راية الإسلام.

أما ما دارت حوله المفاوضات فهو الإيمان بالله، وتأمين الحماية للرسول لإبلاغ دعوته وإقامة دولته.

وقد يخطر في البال سؤالٌ وهو: أليس من فقه الموازنات أن يجاب هؤلاء لمطلبهم فهم سيهدفون نحورهم للعرب لنصرة هذا الدين، وبالتالي لابد أن يجزى ذلك جزاءه ؟

والرد على ذلك أن الذي يقصد من وراء النصرة المركز والجاه لا تهمه الدعوة وانتصارها لأنها مجرد مطيةٍ يمتطيها ليصل بها إلى غايته، وهو مستعدٌ للتضحية بهذه الدعوة أو استبدالها بغيرها إذا كانت تحقق له هدفه بثمنٍ أقل، فالاستجابة لطلب هؤلاء يجعل الدعوة عرضةً لعبث العابثين وطمع الطامعين لذلك كان رد الرسول حاسماً يضع شروط التفاوض على الحماية، ومن أهمها التضحية في سبيلها، وليس التضحية بالدعوة في سبيل المصلحة

لذلك رفض النبي صلى الله عليه وسلم أن يعطي القوى المستعدة لتقديم نصرتها أي ضمانات بأن يكون لأشخاصهم شيءٌ من الحكم والسلطان على سبيل الثمن، أو المكافأة لما يقدمون من نصرة وتأييد للدعوة الإسلامية؛ وذلك لأن الدعوة الإسلامية إنما هي دعوة إلى الله، فالشرط الأساسي فيمن يؤمن بها، ويستعد لنصرتها أن يكون الإخلاص لله، ونشدان رضاه، هما الغاية التي يسعى إليها من النصرة والتضحية، وليس الطمع في النفوذ أو الرغبة في السلطان، وذلك لأن الغاية التي يضعها الإنسان للشيء، هي التي تكيف نشاطه في السعي إليه، فلا بد إذن من أن تتجرد الغاية المستهدفة من وراء نصرة الدعوة، عن أي مصلحةٍ ماديةٍ لضمان دوام التأييد لها، وضمان المحافظة عليها من أي انحراف، وضمان أقصى ما يمكن من بذل الدعم لها، وتقديم التضحيات في سبيلها .

ومن فقه الموازنات في التحالف على النصرة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلبها لدعوته من زعماء القبائل، أن يكون أهل النصرة غير مرتبطين بمعاهدات دولية، تتناقض مع الدعوة، ولا يستطيعون التحرر منها، وذلك لأن احتضانهم للدعوة والحالة هذه، يعرضها لخطر القضاء عليها من قبل الدول التي بينهم وبينها تلك المعاهدات، والتي تجد في الدعوة الإسلامية خطرًا عليها وتهديدًا لمصالحها .

وهذا من فقه الموازنات الذي نتعلمه من منهج الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو أن المصلحة إن أدت إلى مفسدةٍ عظمى فيجب عدم الإقدام عليها، فمما لا شك فيه أن التحالف مع بني شيبان يحقق للدعوة حمايةً دون مياه العرب، وهذه مصلحةٌ كبيرةٌ للإسلام، ولكن هذه المصلحة مهددة بمفسدةٍ كبرى تتمثل في نقمة الملك كسرى على الإسلام ورسوله، مما يجعل الدولة الإسلامية الناشئة معرضةً لخطر الاجتياح والتدمير، لأن الدول المتغطرسة ترفض أن يقوم بجانبها كيانٌ يهدد مصالحها

إن الحماية المشروطة أو الجزئية لا تحقق الهدف المقصود فلن يخوض بنو شيبان حربًا ضد كسرى لو أراد القبض على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسليمه، ولن يخوضوا حربًا ضد كسرى لو أراد مهاجمة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه، وبذلك فشلت المباحثات .

و كان رد الرسول على المثنى حين عرض عليه حمايته على مياه العرب دون مياه فارس «إن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه».

إن هذه الشروط الذي وضعها الرسول للتحالف وجدت القوم الصادقين الذين حازوا شرف حمل لواء الدين وبناء دولته وهم أنصار رسول الله من الأوس والخزرج، ففي بيعة العقبة الثانية عندما اشترط رسول الله صلى الله عليهم الحماية والمنعة وقال لهم: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، قال له أحد زعماء الأنصار وهو البراء بن معرور: نعم، والذي بعثك بالحق نبياً، لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر .

ولما ذكر لهم أسعد بن زرارة مخاطر هذا التحالف وقال لهم: إن إخراجه – أي الرسول – اليوم مناوأةٌ للعرب كافةً، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم تصبرون على ذلك فخذوه، وأجركم على الله، وإما أنتم قومٌ تخافون من أنفسكم خيفةً فذروه فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله، كان ردهم قوياً مدوياً: والله لا ندع هذه البيعة أبداً، وقاموا إليه فبايعوه جميعاً على ذلك.

وقد أعلن الأنصار قطع علائقهم باليهود وبكل من حولهم لصالح هذا التحالف، ولكنهم أحبوا أن يستوثقوا من الرسول موقفه تجاه ذلك فكان رد الرسول: "الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم" .

ولم يطلب الأنصار أي منصبٍ أو مطلبٍ مقابل هذا التحالف سوى رضي الله والجنة، فحازوا بذلك قصب السبق، وفيهم نزل قوله تعالى: والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجةً مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون (الحشر: ٩).

ثالثاً: المفاوضات مع غطفان لكسر الحصار عن المسلمين

لما اشتد على المسلمين البلاء جراء الحصار المفروض عليهم من الأحزاب، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف وهما قائدا غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، وكتبوا في ذلك كتاباً، وأرسل الرسول لسعد بن معاذ وسعد بن عبادة ليستشيرهما، فقالا: يا رسول الله أمرٌ تحب فنصنعه؟ أم شيئٌ أمرك الله به لابد لنا من العمل به؟ أم شيئٌ تصنعه لنا؟ قال: بل شئ أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ، وكالبوكم من كل جانبٍ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما. فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً إلا قرىً أو بيعاً، أحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا حاجة، والله ما نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: فأنت وذاك، فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا .

في هذه المفاوضات التي جرت بين الرسول صلى الله عليه وسلم وغطفان نستخلص عدة دروسٍ في فقه الموازنات:

الأول: الموازنة بين أصناف الأعداء لاختيار الحلقة الأضعف ليتم اختراق صفوفهم من خلالها، وهذا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو لم يعرض المفاوضات على قريش ولا على اليهود لأنهم هم أساس الصراع، والحرب معهم حرب عقيدةٍ ومبدأ ونزاع سياسي حاد، وإنما عرض المفاوضات على غطفان لأنه يعلم صلى الله عليه وسلم أنها وقادتها ليس لهم من وراء الاشتراك في هذا الغزو أي هدف سياسي يريدون تحقيقه، أو باعثٍ عقائديٍ يقاتلون تحت رايته، وإنما كان هدفهم الأول والأخير من الاشتراك في هذا الغزو الكبير هو الحصول على المال بالاستيلاء عليه من خيرات المدينة عند احتلالها؛ ولهذا لم يحاول الرسول صلى الله عليه وسلم الاتصال بقيادة الأحزاب من اليهود أو قادة قريش كأبي سفيان بن حرب، لأن هدف أولئك الرئيسي، لم يكن المال، وإنما كان هدفهم هدفًا سياسيًّا وعقائديًّا يتوقف تحقيقه والوصول إليه على هدم الكيان الإسلامي من الأساس؛ لذا فقد كان اتصاله (فقط) بقادة غطفان، الذين (فعلاً) لم يترددوا فى قبول العرض الذي عرضه عليهم النبى صلى الله عليه

الثاني: يتمثل في عرض الرسول ثلث ثمار المدينة على غطفان مقابل أن تسحب جيوشها، وترجع إلى بلادها، وتخذل بين الأحزاب المتحالفة ضد المسلمين.

إن دفع المال للعدو مفسدةٌ تلحق بالمسلمين وهي مصلحةٌ للعدو يتقوى بها عليهم، ولكنه إن حقق مصلحةً كبرى أو أزاح عن المسلمين مفسدةً كبرى كان لابد منه، وهذا ما ارتآه رسول الله صلى الله عليه وسلم، رأى أن دفع ثلث ثمار المدينة لغطفان سيؤدي إلى مصلحةٍ كبيرةٍ تتمثل في فك حصارهم عن المدينة، وتخذيلهم للأحزاب المتحالفة، خاصةً وأنه ليس باستطاعة المسلمين التصدي لهذه الأحزاب مجتمعة، وقد طال أمد الحصار، وقد تجلى هذا المقصد في قوله عليه الصلاة والسلام لقائدي غطفان: «أرأيت إن جعلت لكم ثلث تمر المدينة ترجعان بمن معكما وتخذلان بين الأعراب؟».

وفي قوله لسعد بن معاذ: والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ، وكالبوكم من كل جانبٍ ،فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما.

وفي فعل الرسول عليه الصلاة والسلام إرشادٌ للمسلمين إلى عدة أمور منها:

- أن يحاول المسلمون التفتيش عن ثغرات القوى المعادية.
- أن يكون الهدف الإستراتيجي للقيادة المسلمة تحييد من تستطيع تحييده، ولا تنسى القيادة الفتوى والشورى والمصلحة الآنية والمستقبلية للإسلام.

ولكن الأمر لم يتم لأن السعدين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رفضا هذا الاتفاق بعدما علما أنه ليس بالوحي، وإنما هو من باب السياسة وكسر شوكة العدو، وهو مجالٌ رحبٌ للاجتهاد واختلاف الآراء، وهو كذلك مجال الاختلاف في تحديد المصالح والمفاسد والترجيح بينها.

فالسعدان – رضي الله عنهما – رأيا أن لدى المسلمين من الهمة والروح المعنوية العالية ما تؤهلهم للاستمرار في الثبات في مواقعهم حتى تنكسر عزيمة المشركين أمام عزيمتهم، من غير أن يدفعوا شيئاً لهؤلاء الكفرة يتقوون به على المسلمين أو يذلوهم من خلاله، لذلك كان جواب سعد بن معاذ رضي الله عنه: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً إلا قرىً أو بيعاً، أحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا والله ما لنا بهذا حاجة، والله ما نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.؟

وقد أقره النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك، وكانت نتيجة المعركة كما هو معلوم اندحار الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال.

نلتقي في الحلقة القادمة إن شاء الله